

الغُصْنُ المَحْمَدِي.. «أَيُّ بُنْي، كُنْ بِسَّامًا»



1- أَيُّ بُنْي! كُنْ هَاشِيًا، بِاشِيًا، بِسَّامًا.. ما استطعت! - الأُسوة: قال رسول الله (ص):
"إنَّكم لن تسعوا الناس بأموالِكُمْ، فالقوهُمْ بطلاقةِ الوجهِ، وحُسنِ البِشر!" ونقل
عنه أكثر الناس معرفةً به، أخوه وابنُ عمِّه (علي بن أبي طالب (ع))، أنَّهُ قال: "إنَّ
اللهَ يَبغضُ المُعَدِّسَ في وجهِ إخوانِه!" وكان (ص) يرى أنَّ البِشاشةَ علاجٌ للحقد،
فيقول: "حُسنُ البِشرِ يذهبُ بالسَّخيمة!" وهذه بعضُ شهاداتِ أبنائه (ص): 1- يقول الإمام
الباقر (ع): "كان من رأفته (ص) لأُمَّتِه مُداعبتهُ لهم، كي لا يبلغ بأحدِهم منه التعظيم
حتى لا ينظر إليه!" 2- ويقول الإمام الصادق (ع): "لقد كان رسول الله (ص) يُداعِبُ الرجلَ
يُريدُ أن يُسرِّه!" ومثلاً هذا قول الإمام علي (ع): "كان رسول الله (ص) يُسرِّسُ الرجلَ من
أصحابه إذا رآه مغموماً، بالمُداعبة!" وكان (ص) يُميِّز بين (المؤمن) وبين (المنافق)
من خلال بشاشةِ أوَّل وعبوسِ الثاني، فيقول: "المؤمنُ دَعِبٌ لَعِبٌ، والمنافقُ قَطِبٌ
وَعَضِبٌ." - التأسُّي: أَيُّ بُنْي! لقد كان العربُ إذا مدحوا أحداً، قالوا عنه: هو ضحوك
السنِّ، بسَّامُ الثنِيَّاتِ، هَشٌّ إلى الضيفِ!! وإذا ذمُّوا أحداً، قالوا عنه: هو عبوسُ
الوجهِ، جهيمُ المُحييِّ، كَرِيهُ المنظرِ، حامضُ الوجنةِ، كأنَّما نُضِّجَ وجهُهُ بالخلِّ،
أو أُسْعَطَ خيشومَه بالخرَدَلِ!! أَيُّ بُنْي! إنَّ أوَّل ما يُطالعك من شخصٍ وهو مُقبلٌ عليكَ
وجهُهُ، فإذا كان مُبتسماً عرفت أنَّهُ مرتاحٌ سعيدٌ، وأنَّهُ سيُريحك ويُسعدك، وإذا كان
متجهِّماً، أدركتَ أنَّهُ يحملُ لكَ الهمومَ والسمومَ علاوةً على ما لديكَ منهما. أَيُّ بُنْي!

طالِعَ الآخِرِينَ بِوَجْهِ بِسَامٍ، فَالِإِتْسَامَةُ تَحِيَّةٌ شَفَّافَةٌ تُسَبِّقُ التَّحِيَّةَ، هِيَ فَرَاشَةُ تَطِيرُ مِنْ وَجْهِكَ لِتَحُطَّ عَلَى زَهْرَةٍ قَلْبِ مَنْ تَقْبِلُ عَلَيْهِ، فَيَسْتَحِيلُ لِقَاؤَكُمَا إِلَى رَوْضَةٍ! وَقَدْ لَا يَكُونُ لَدَيْكَ مَا تُقَدِّمُهُ لِأَخِيكَ مِنْ مَالٍ أَوْ خِدْمَةٍ أَوْ مَعُونَةٍ أَوْ مَسَاعِدَةٍ، لَكِنَّ طَلَاقَ الْوَجْهِ وَحُسْنَ الْبَشْرِ وَالْكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ يُخَفِّفَانِ مِنْ هَمِّهِ إِنْ لَمْ يُزِيلَاهُ، فَتَكُونُ قَدْ سَلَّيْتَهُ إِنْ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى أَنْ تُسَرِّهَ. أَيُّ بُنِيِّ! الْبَعْضُ عَوَّدَ نَفْسَهُ أَنْ يَبْتَسِمَ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ، أَنْ يُغَالِبَ الْقَهْرَ بِابْتِسَامَتِهِ، أَنْ لَا يَعِينَهُ الْكَآبَةُ عَلَى نَفْسِهِ.. يَذُوبُ بِهَا بِابْتِسَامَةٍ مُنْتَزِعَةٍ تَتَعَالَى عَلَى الْمَوْقِفِ الْحَزِينِ، وَاللَّحْظَةِ الْكَثِيبَةِ. إِنَّهَا لَيْسَتْ ابْتِسَامَةُ الْبَلَاهَةِ وَالسَّفَاهَةِ.. إِنَّهَا ابْتِسَامَةُ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّغْلُغْلِ بَيْنَ الْغَيُومِ لِيَنْسَابَ الشَّعَاعُ وَلَوْ بِصِيصًا!! أَيُّ بُنِيِّ! فِي عِلْمِ النَّفْسِ الْيَوْمِ يَتَحَدَّثُونَ عَنِ (سِحْرِ الشَّخْصِيَّةِ)، وَأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَقْرَأُونَ أَنَّ فِي الْإِمْكَانِ الْإِتِّصَالَ مِنْ دُونِ سَلْكِ بَأْبَعِدِ النَّاسِ، وَإِنْ كُلُّ كَائِنٍ إِنْسَانِيٍّ قَدْ وَهَبَ خَاصَّةً (إِشْعَاعِيَّةً) تَخْتَلِفُ سَطْوَعًا وَخَمُودًا حَسَبَ دَرَجَةِ نَشَاطِهِ النَّفْسِيِّ، كَمَا تَخْتَلِفُ نَتَائِجُهَا وَأَصْدَاؤُهَا حَسَبَ دَقَّةِ تَوْجِيهِهَا. أَيُّ بُنِيِّ! كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَمْزِحُ مَعَ أَصْحَابِهِ، حَيْثُ يَقُولُ: "إِنَّ نَبِيَّ لَأَمْزِحُ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا". أَيُّ بُنِيِّ! كُلُّ مَنْ يَقُولُ لَكَ إِنَّ عَلَى الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ صَارِمَ الْوَجْهِ، جَامِدَ الْقَسَمَاتِ حَتَّى يَبْدُو كَيْسًا، فَلَا تُصَدِّقْهُ، فَالْعَبُوسُ - يَا وَلَدِي - لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَنَافِقِينَ، وَإِنَّ نَبِيَّ لَأَرْبَأُ بِكَ أَنْ تَكُونَ لَكَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الَّتِي يَبْغِضُهَا اللَّهُ، صِفَةٌ. عَوَّدَ - أَيُّ بُنِيِّ - عَضَلَاتِ وَجْهِكَ عَلَى الْإِنْسَابِ وَالْبِشَاشَةِ، فَذَلِكَ أَقْلٌ كُفْلَفَةٌ مِنَ التَّجْهِمِ، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ: "الْبِشَاشَةُ حِبَالُ الْمُودَّةِ"! تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ صِيًّا دَائِمًا مَاهِرًا (تَصْطَادُ الْقُلُوبَ).. لَتَكُنْ ابْتِسَامَتُكَ الْمُشْرِقَةَ النَّقِيَّةَ، هِيَ (الشَّبَكَةُ)!! 2- أَيُّ بُنِيِّ! كُنْ الْمُبَادِرَ إِلَى التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ.. مَا اسْتَطَعْتَ! - الْأُسُوءَةُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَهِهُ بِالسَّلَامِ، وَيُسَلِّمُ عَلَى الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَإِذَا لَقِيَ مُسْلِمًا بَدَأَ بِالْمُصَافِحَةِ، وَكَانَ يَرْفُضُ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَيَقُولُ: "لَقَدْ أَبَدَلْنَا اللَّهُ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ"! وَكَانَ (ص) يَقُولُ: "السَّلَامُ تَحِيَّةٌ لِمَلَّتْنَا، وَأَمَانٌ لِدَمَّتْنَا"! وَكَانَ (ص) يُوَصِّي، فَيَقُولُ: "إِذَا تَلَقَيْتُمْ فِتْلَاقًا بِالسَّلَامِ وَالتَّصَافِحِ، وَإِذَا تَفَرَّقْتُمْ فَتَفَرَّقُوا بِالِاسْتِغْفَارِ". وَكَانَ (ص) يُؤَكِّدُ: "إِنَّ مِنْ مَوْجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ، بِذَلِكَ السَّلَامِ وَحُسْنِ الْكَلَامِ". وَكَانَ (ص) يَرَى أَنَّ أَشَدَّ الْبَخْلِ هُوَ الْبَخْلُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، فَيَقُولُ: "إِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ". وَكَانَ (ص) يَعْتَبِرُ الْمُبَادِيَّ بِالسَّلَامِ بَرِيئًا مِنَ التَّكْبُرِ، فَيَقُولُ: "الْبَادِيُّ بِالسَّلَامِ بَرِيءٌ مِنَ الْكِبَرِ". وَكَانَ (ص) يَحْتَضِرُ عَلَى الْإِكْتَارِ مِنَ السَّلَامِ وَنَشْرِهِ، فَيَقُولُ: "أَفْشَرَ السَّلَامِ يَكْثَرُ خَيْرٌ بَيْتِكَ". وَكَانَ (ص) يَدْعُو إِلَى نَشْرِ السَّلَامِ عَلَى نِطَاقِ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَيَقُولُ: "لَا أَخْبِرْكُمْ بِخَيْرِ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: إِفْشَاءَ السَّلَامِ فِي الْعَالَمِ"! وَكَانَ (ص) يُثَمِّنُ مِنَ الْمُبَادِرَةِ فِي التَّحِيَّةِ، فَيَقُولُ: "السَّلَامُ تَطَوُّعٌ، وَالرَّدُّ فَرِيضَةٌ" [1]. -

التأسّي: أي بُنيّ! أتعرف عن أي براعم الخير والبركة تفتتح التحية؟ إنّها رسولك الذي يُعبّر عن شخصيتك.. أنت تُسلّم، هذا يعني أنّك مُسلم، أنت تُسلّم.. سلامك رسالةٌ تطمين وأمان للآخر، وربّما كان فاتحة عهدٍ لتعارفٍ وتآلف، أو زيادة معرفةٍ وألفة. أي بُنيّ! المُبادرة إلى السلام تعبيرٌ عن روحية الكرام، وعن روحية التواضع، وعن روحية الحب، وعن روحية الصفاء. تحيةٌ تُلقِيها على أخيك أو جارك أو زميلك أو على جمع من الناس، تجلبُ لك كلّ ذلك.. ترسمك في أذهان المُسلّم عليهم: كريماً، متواضعاً، مُحبباً، مُخلصاً ودوداً. أي بُنيّ! لا كلام قبل السلام.. فالسلام إيذانٌ بأنّ الطريق سالكةٌ آمنة، فلا يسبق كلامك سلامك.. إنّه افتتاحيةٌ محبّيةٌ تجعل ما بعدها منتظراً ومُرحباً به. إنّه إذا ألقيت التحية على جماعة سبقوك إلى المكان أو الاجتماع، فذلك يعني أنّ بإمكانك أن تلتحق بالجمع بلا ريبة، وأن تنخرط معهم بلا تردد. أي بُنيّ! إنّ تحية الإسلام: (السلامُ عليكم) تدريبٌ عملي على أخلاق الجنّة، لا لكي نتقنها هناك، بل لأنّ من الرائع الممتع حقاً أن تمارس جنتك من الآن. تخيّل وأنت في حضن النعيم الأبدي والملائكة يطلّون عليك بـ(سلامٌ عليكم)! أيّة نعمة أحلى، وأيّة نيرة أعذب من ملاكٍ يلقي عليك التحية؟ أيّ سرور يُداخلك وأنت ترفلُ بين أجنحة السلام؟! دَع جناح السلام يُرفرف على مَنْ حولك.. كُن الملاك الذي يُلقى على الآخرين التحية! أي بُنيّ! والتحية ليست كلاماً دائماً، فقد تكون التحية هديةً تبعث إلى مَنْ تحبّ، أو رسالةً وأنت مسافر، أو كلمة طيبة، أو ابتسامة عذبة بوجهٍ بريء. ألم تُحيّ تلك الجاريةُ الإمام الحسن (ع) بباقة ريحان، فحيّاها بأحسن منها بأن أعتقها! أي بُنيّ! رُدّ التحية بمثلها.. لكنك وأنت تعملُ على أن تتأسّ بنبيّك حيّ بأحسن منها! أمّا ترى لو أنّك أهديت شخصاً قلماً وأهداك كتاباً، كانت هديّته أهناً لنفسك، وافرّس لعينك؟! [1]- قال الإمام علي (ع): "السلامُ سبعونَ حسنة، تسعةٌ وستون للمُبتدئ وواحدة للراد".